حكاية
غريب
نصوص نثرية
نوادر إبراهيم عبدالله

حكاية غريب

نصوص نثرية

الجزء الأول

نوادر إبراهيم عبدالله

إهداء

إلى الغرباء في أوطانهم، إلى الذين سرقتهم الغربة في بقاع مظلمة، إلى نفسي التي تعلم أنها نفسي، إلى الليل والإلهام الطويل، ثم إلى الغريب الذي سيقرأ ويبتسم.

الـبـدايـة

حدثني ذلك الغريب عن أمرٍ كنت أجهله، سألني لماذا أخاف الكتابة؟ وأبخل فيها بجودِ المعاني، حدثني بين حيرتي وشغفي عن تلاشي المسافة بيني وبين الخجل، سألني كيف أجوب دواخل الكلمات وأنا مرتدية قناعًا شحيح المقاس.

يا غريبي سأذيعك سرًا أنا لا أكتب إلا لأهرب مني، ولا أهرول في مشاعري إلا عندما يُطاردني الماضي ويبحثُ عن ملاذِ ذكرياته بجانبي؛ أَتعلم؟ أنا لا أكتب كثيرًا قدر ما أكبتُ مشاكساتك، نعم يعتريني حياء القلم فلا أستطيع اخبارك كم أعشق الصدفة التي جمعت اختلافنا، يعتريني شوق لم أعهدْ له نظيرًا، يعتريني جمالٌ أراه في وجهِك وعينيك ولا مفر من البوحِ إلا عبر حرفٍ مُلبد بأشياءٍ أذكر أنها تدعى (حكايات عشق) لكنني سأُسميها (حكاية غريب) لا أعرف عنه شيء سوى حرف وعين وبعض الأدب الذي ينظمه بيديه في دارٍ بعيدة أخذته حنينًا وغدرًا، لا أعرف سوى أنني بتُ أبحث عن تبريرٍ يُفسر تذبذب نبضاتي وأنين

سويدائي الذي يحلم أن يسامر جُفنه حتى ينام ويهدهدني غنوة حالمة، كطفلةٍ تبحث عن ألوانٍ تُزين حديقتها الصغيرة، كتلك الجامحة التي أخبرت فارسها تواً أنها مجنونة بحاجبيه حين يرفع أحدهما مغازلاً إياها، فتتشنج حبالها الصوتية بوتيرةٍ عَهِدَها تليها همهمة وكلام ما أنزلت الأبجدية به من تفسير؛ سأخبرك يا غريبي كيف يعجُ الفضاء بالكواكب، وكم كائن صادفته في مكوكِ الخيال والتنجيم، وكلهم كذبوا لم يخبرني أحد أن الأرض قادرة على إنجابك وملاقاتك لي في فسحة من واقعٍ وبعض الهذيان المأجج بالربيعِ السرمدي، لم يعلمني أحد أنك أتٍ في عجلة من أمرِ القدر، وأنك مُقدر لي علي هيئةِ فرحٍ وسحر، هي البداية فقط ياغريب، مرحباً بك بلا مسمى، بلا صفة، فأنا لا أجد في كينونتي ما يُليق بالتعبير عنك، ولك في ذاتي بعض الاستفهام الذي يتعملق كلما رأيت عينك تُخاطبني: ثم ماذا بعد؟!.

صوتــه

يبدو كأنه في بدايةِ الثلاثين، يمتلك صوته اهتزاز دافئ، وبحة تُحرك الروح وتُفتن الخلايا بسجية الاحتراق الجميل، هو ليس كغيره، مزيجٌ من حيرة وتقديس، وبعضٌ من عظمة وضعف، أو كما قال هو اعتياديٌ في حضرتهم، لكنه يُنادي الأعماق نجدته من اليأس والألم؛ صوته عنفواني بعض الشيء لكنه طبطب على مسمعي قساوة الآهات والتوجس، صوته كشجرته تلك التي يجن بها، مفعمة دهشة وكبرياء وألق، وغموض جعلني أسأل نفسي كيف وجدني وتعلقت به كتعلقي ب(شلوخ جدتي) التي لا تُفارقها، ولا تُفارق مُخيلتي وبصيرتي بحكمتِها وأُحجياتها، كيف أخذني إليه في صمت وهدوء؟ طاوعته وصادقته قلباً وعقلاً واتزانا، كيف أنتظره؟ وبداخلي براكين طاغية يملأها هو ثورة واشتعال، وتمرد على مبادئ الأيام قبله.

يشبه صوته إدمان (درويش) لإيقاع (النَوبة) وحلقات (التُقابة) التي تجعله يَرقُص في خَدَرٍ وجنون من اللا وعي جعله يرى جميلته تلوح بأياديها من على بعد قدره ألف سنة

ضوئية، تُرسله السلام والشوق ويرسمها ليلاً في سماء الوحدة، بألوان عباءته المزركشة حورية تسير على (درب التبانة) في تيهٍ وعجرفة تشبه غنج (البدو) في الليالي الراقصة.

صوته كقصيدةٍ طويلة جدًّا، تسترسل في الروح مُداعبة دون ملل، كلمسةٍ طفل حديث الميلاد والأكسجين، ابتسمَ فظهر القمر في وَضحِ النهار، كقصةٍ بدايتها غُربة، وأحداثها مشوقة، ونهايتها مُبهمة كنهاية قصتي مع الغريب التي لا أعلمها بعد.

صوته بكل صلابة وانهزام يسلبني راحتي وسكوني، ويُبدل حالي إلى عشق لا أقوى على مقاومته؛ هو غريب مُذهل كأنه ترتيل لأحلامي التي أخذها البحر بعيداً حين انكسار لَملمه موج الدموع وعاصفة الآهة، فجاء صوتك اليوم يُبشرني بك وأنا بين (أُصدقُ) أو (لا أُصدق) حائرة ولا أدري لماذا أكتبك؟ وأنت الغريب الذي توج نفسه مُلهماً دون أن يسألني كيف أبدو وقد غزاني وأنا لا حول لي ولا حُجة إلا سؤالي لك يا غريب: ثم ماذا بعد؟!.

سهرة الأمس

بالأمسِ أخذنا السهر إلى أبعد حدود الجمال؛ تعرفتُ عليه عن قُربِ، فوجدتُ فيه السلام الذي أفتقد، عَرفتُ عنه الكثير وما زلت طامعة أن أسكنه حتى تأخذ سحنتي كل تفصيلٍ من سحنته، وأنهل من قلبه دفء الأيام، لا أنكر أنني أريده وأريد أن أمتص من عمقِه كل الأسى والشجن، أريد أن أهديه ما تبقى في روحي من حب، حتى وإن كان هذا الحب لا وجود له إلا في أحلامي البعيدة عنه، تلك الأحلام التي ترهقني وتُلوع أنفاسي كل صباح.

بالأمسِ كم تمنيت ألا تنتهي الليلة؛ كم كنت أريد أن أتحكم بكلامي أكثر وأستر عنه ما انكشف من أسرارٍ وحوجةٍ إلى أمله العنيد، أعلم أنني غريبة مثله أشبهه ويُشبهني حتى في التفاصيل السمراء التي رسمتها عقارب الزمن على كفيّه وبصمتي، بالأمس تصرفت كلصٍ أحمق لا يُجيد سرقة أبسط الأشياء، تصرفت مثله فما كان مني إلا أن أطلب منه أشياءً أحتاجها كرفقتِه وصوته، فحدث سحر في لحظةٍ

غريبة سألني: (هل كنت على قيد الحب؟)، تمنيت حينها أن أخبره أنني منذ رؤيته أصبحت على قيده وعلى نهجه أتنفس عبقاً؛ تمنيت أن يستمر ممازحًا كلماتي ويعكسها على وجهي بلمحةِ من حزنه الذي يحاول أن يسجنه بعيداً عني، لكن هيهات فأنا أريد أن أُصادق ذلك الحزن وأمزقه حتى يتلاشى ويرحل عنه؛ أُريد أن أنزع الحواجز بيننا، فلا جدوى من المسافة وأنا لصيقة بك، قريبة كشهيقٍ يعشق زفيره، وكوريدٍ يجود بالنبض، وكفراشةٍ تسرق الرحيق فتأخذها سلافة وردة نادرة تحمل كل الألوان المقدسة.

متصالحة أنا في وجوده ولا أتكلف مهما حاصرني اشتعاله، لا تسألني يا غريب كيف أُجيد معرفتك وأتوقع كيف تبدو أنت في وحدتك الكئيبة، لا تسألني! فقط صدق أنني بالصدفة التقيتك، فكتبتك مددًا للأمل، وصدق أن لا علاقة لي ب(الأبراج) ولا أقرأ (الفنجان) ولا أفسر (الكف) ولا أدعي (فلسفة تحليل الشخصيات)، فقط أنا مُولعة بالصدقِ حين أعشق حدسك الذي يمثلني ويمثل جراحي، فما عدتُ أريد سواك، وأعلم أن هلاكي في ابتعادك، ونعيمي في عينيك، وبهجتي أن تبتهج معي بكل صدق فأنا مللت (مجاملات البشر) الهادرة للنزاهة.

أخبرني الآن يا غريب هل ستجيد رسم لوحة تشبهك على فضاء قلبي بألوانك؟ فلترسمني يا غريب، وأعدك أن أقول لك كل أسرار السعادة التي لن تملها، وسوف تسألني مرارًا وكلك عطش: ثم ماذا بعد؟!.

ملامحه

في صباح هذا اليوم تملكني الفضول إليه؛ فتصفحت صوره خلسة، و يا لها من مصادفة تملكت شعوري بشيء فظيع لا أفهمه، يسري في عروقي، بدأت بوجهه وجدته ينضح قسوة تجذبني إليه، وحزن عميق كعمقِ حبي الخفي له.

وجدتُ في وجهه رأفة من نفحات الجنة، تحسسته وفي داخلي لحن عجيب، يجرجرني إلى إدمانه أكثر فأكثر، وجدته كما تخيلته تمامًا، صامدٌ رغم هشاشته، وعاقلٌ رغم مزاحه المتكرر، وجدته مثلي يفتقد الوجود والأمان.

أما عينه فيا لمصيبتي وحيرتي فيها! عين تخرجني من ذاتي وتطوف بي كل بقاع الأرض بلحظةٍ، فأجنُ بها كلما لمحت

سوادها الأخاذ، عين كشمسِ الله تملأني طاقة وأشعة ملونة بأيات السمو، فتبوحني بما يحمله قلبه من شوق لي.

يمتلك حاجبًا يعاندني حين نظرة، يجبر جفنه مطاوعته ليمنحني إلهام الحياة في دواخله، والنعيم به حيث لا شروط ولا قواعد سوى قانون اللهفة المضيئة بهمسِ خجله، وعدم تصريحه بما يحمله لي من هوى واحتواء.

يداه توحي لي بأن صدره يسع العالم ويسعني ملاذًا ومنزلًا، توحي لي أيضًا بشهامةِ رجلٍ فريد لا يشبهه مثيل ولا يُقارن بمقياسٍ ولا عقل، فقط هو رجلي الذي زارني ذات حلم في إحدى ليالي الهزيمة، فأعطاني روح أستطيع أن أحارب بها كل كينونات اليأس، وأنتصر عليها به، كسلاحٍ مدمر لكل أدمعي.

ملامحه غريبة كغربتي من قبله، ملامحٌ تنثرني وتعيد تشكيلي، وتطبعني قُبلة علي خديه في وهلة متسارعة النبض، ملامح جبارة باستطاعتها تجديد خلايا الأمس وترجمتها إلى سيمفونية تضيئني، وتضيعني ألف ضياع فقط ليكون الغريب منقذي وبطل بلا منازع في كون لا يفهمني كما أحب، فقط أحببت غريبي من البداية وكان صوته بمثابة تعويذة قديمة بحوزتي دون علمي بمفعولها

حتى التقيته، وكان سهري معه رائعًا بشكلٍ إعجازي، كبلسمٍ كله تقوى وزهد وتهليل؛ ها هي ملامحه اليوم تعيرني انتباهها، وتخطفني إلى عالمها وأنا أشير إليه: يا غريب إلى أين تأخذني؟ ما بالك اليوم لا تشاورني؟ ما بالك لا تحاورني كالعادة؟ ما باليَّ أنا اليوم أحيطك بريقًا وموافقة على كل قول واضحًا كان أو مبهمًا، ما بال يومي يهنئني بقدومِك، وملامحك تكتب كتابها بحبري، فتختمه بسؤالي المعتاد: ثم ماذا بعد؟!.

مخاوفه

أجد صعوبة بالغة في البوح اليوم، يعتريني شعورًا باليأس منذ الصباح وبداخلي عتمة تبكيني في صمت، لم أكن أعلم أن وجوده سيؤثر بنفسيتي هكذا؛ استمرت حالتي بالغروب لفترة كانت كافية بأن استرجع كل هفواتي السابقة في لحظة، إلى أن ظهر الغريب وسألني الحال والصباح وذلك الصداع الذي يزعزعني كل حين دون توقف، وأذكر أنه حاول جهده أن يفهم كيف بدأ يومي حتى وصلت إلى هذا التشاؤم؛ حاول

مرتين ولم يفلح فخطر بباله أن يدهشني بشيء من التشويق أقتبس أنه قال لديه الحل والخلاص من هذا البؤس الذي يعتريني، شعرتُ بفضولٍ لأعرف، وجاء الجواب من الله حين سمعت الآذان يناديني لأُصلي، استأذنته لأُصليَّ، شعرتُ بعدها بسكينةِ دافئة، رفعت يدي مُناجية ألا يحرمني ربي وجود غريبي، عدتُ إليه بعد ذلك فسألني عن مخاوفي مقابل أن يخبرني هو أيضاً ما يهابه، سَعدت جداً بعرضه وبدأت أأحادث، كم تمنيت حينها أن يقف أمامي ويغمرني لأتنفسه وأهجر محرابي الأسود؛ كم تمنيت أن تُلامس أناملي غابات لحيته الداكنة، كم تمنيت أن أقول له أن كل مخاوفي هي فقدانه وخسارة قيم الصبابة بعده، أتدري يا عزيزي أنا لا أخاف في حضرتك بل أحتضر حين تجنح الأيام دون لِحاظك، ويبدأ الفجر دون ابتهال يحتويك.

سمعت هذا الصباح في برنامج إذاعي أن أكبر مخاوف العشق الفراق كأن مقدم البرنامج كان يقرأني ويعرف ما يفكر به خاطري، سرحت مطولاً في داخلي فانتابني حدس بأن غريبي ينتظرني كل هذه السنين؛ كان يريدني بقربه ويعشقني بصمت وانفصام بين مخاوفه وأحلامه، وفي فوضى الآهات أخبرني اليوم أنه يُعاني فوبيا الزحام فلا

يستطيع التنفس دوني، كم أسعدني حين قال أنه يراني بعين الثقة والوداد، لذلك سيصرح لي بكل تفاصيله التي عشقتها سلفًا قبل كل شيء، تلك التفاصيل التي تثير جنوني وتنزعني عن ثباتي، أتعلم يا غريب مخاوفك جميلة بالقدر الذي يجعلها لا تستحق هذه التسمية، فقط جرب أن تصطحبني في موعد ذات ليل وقمر، سأُنسيك يومها مَنْ أنت، فقط جربني لأُعلمك أن القرب أروع ما يكون عندما تنظر بعيني وترى ولهي وعطشي وكثافة لوعتي حين أغار عليك؛ نعم الغيرة من هواياتي وملذاتي المتقنة بعناية وجودة، فلا تختبرني يا غريب وتجني ثمار غضبي الثائر المعبق بحنانٍ كنظرةِ عينك الجريئة.

يا غريب لدي طلب صغير أصغي إليه جيدًا، لا تطيل في غيابك فأنا لا أستطيع المكابرة أكثر، أنا أشتاقك وتقتلني الدقيقة على مدار الثواني، تقتلني أنت ببعدك يا غريب، فلا ترحل! وأنا هنا أطرز شبابي لأجلك، لترتديه فرحًا بقربي، فقط انتظرني على ذلك الوعد الذي يُحير مخاوفك ويجعلني دائمًا أسألك يا غريب: ثم ماذا بعد؟!.

لـوحتـه

ما أجمل أن يراوغنا المنطق في كل زوايا الفكر! ويدهشنا عند كل ومضٍة ساذجة، ما أجمل أن أكون ساخرة لا مبالية بعناد السُذج! ولا أُولي قداسة الأحزان أولويتي، ما أجملني حين أقرع جرس معابد الزهد بداخلك وأجدني معك هناك كتلة تضيء ظلمات الكآبة، و تنزع لعنة الحسد بتعويذة ذات طلاسم مهما تفكرتْ وتعبقرتْ محاولاتي لن أستطيع فك تشفيرها يا غريب، ولن يحالفني الحظ في مجاراتك والفوز برهان المستحيل الممكن، فلا تُخيرني يا غريب بين جنتك ونعيم المغامرة، فأنا أهوى جنون التحدي كما أهوى نظرية التحدي التي تهدد خطواتي تجاهك، لا تُخيرني يا صديق الأطوار الغريبة، فأنا لا أعتادك بهذه اللهجة ولا أعتادني بهذا الضعف والتملق، لا تُخرس عنفواني البركاني، دعه يخبرك بعض من الإعجاز المتراكم على هامةِ انتصارك في عراك الانطواء، لتنطوي كل شكوكك السابحة في بحاري المائلة، وتنطفئ تلك التساؤلات التي أهلكتك دون شكوى منك، ودون تململ يفضح تقلباتك المزاجية عندما

تفكر بكَمِ حُبك لي وتحناني إليك؛ فلترحم فؤادك يا غريب، وترحم كبريائي الزائف، فلتُجدد وثيقة معجزاتنا وتضع بنود تناسبنا معًا وتُقاسمنا التودد والتفاني؛ فلتسعد معي بطبيعتي دون تكلف، دون خوفٍ وتردد، فلتحتويني غريبي بساعديك في ذلك الكوخ الذي نحلم به، وأهديني وردة حمراء من حديقتنا الزاهية، لأهديك عهدًا جديدًا يملأ الأرجاء شجاعة وايمان، فأكتفيك روحًا وريحان، ورجل على هيئة خلاص من الضياع، وسأكون أُنثاك التي لا تُهزم لأجلك ولأجلها، حين كانت طفلة ترسم لوحتها وتُريها لوالدتها فتخبرها بانكسارٍ: "لا وجود للحب يا صغيرتي"، فقط لأجل تلك اللوحة التي اكتملت بك يا غريب، وكم أتمنى أن يعود الزمان وأخبر والدتي أنك موجود معي الآن، أتحسس كلماتك وأستنشق عبيرها كأنها من الجنان؛ أنا الأن في دوامة مغازلتك تثرثر أنت بهذيانٍ وتسألني يا غريب: ثم ماذا بعد؟!.

مـيـزانٌ أم عقـرب

سَمعتُ كثيراً عن محاكاة العقل الباطن لشعورنا وأفكارنا وتوقعاتنا، فأصبحت أُروضه كلما سنحت المُقل مآزرة ما أصبو إليه، أجددُ همتي وأنشدها على حوافِ اللحظة، وأستلهم من كؤوس المسافة نخب القُرب، والقُرب أجمل بغريبٍ لا يُهدر وقتي متعة واستثارة لأحرفي، بل يستمهلني عند كل كلمة، ويفجر مكامن الروح لأحكيه كل أسراري، وما يزيده حيرة، هو أنه يُريد أن يكتشف كيف أعرف عنه كل هذه الأشياء؟! دون وجود سجل سابق يوثق إيماءة نظرة أو لمحة انحناء على قارعة طريق جمعنا حين تصادم سريع دون أن نقول لبعضنا عذرًا.

بنفس الوتيرة كل يوم يُنقب في دواخلي بكل فوضى وبعثرة، وينبش كل خفايا قلمي كطفلٍ لا يهدأ ولا يمل تحطيم تحف الفخار عند زيارة لغريب ما؛ هو كذلك يجدني مُبهرة إلى الحد الذي يجعله يفقد توتره السطحي فيسمح لكل اشتياقه الفضولي أن يستدرجني دون رحمة إلى ملعبه، فأقعُ هشَّةً أمامه، وأتحطم في تناسقٍ كأنه يُعيد هيكلتي وليس العكس،

يُعجبني ذلك التحطم المجازي وأنت تُناظرني أيها الغريب في كياسة وهندمة تفقدني الوعي والنُطق.

الصدفة تجرب معي كل طقوسها، أخذنا التودد إلى حديثٍ عن الأبراج رغم قلة أو إنعدام معرفتي بها، تبادلنا من الكلام ما يجعلني أبدو كإحدى الشهيرات المفكرات في عالم الفلك، وأنا أترنح ضحكًا وأُردد في سكون: "كذب المنجمون ولو صدقوا"، وأتابعك تنتقم لحيرتك يا غريب فتجعلني أخمن إلى أي برجٍ فلكي تنتمي؟ لن أتردد في إجابتي واعتقدتُ أنك ستُصدم من قولي: ميزان أم عقرب؟! وأنا لا أعرف لك ميلاد إلا ميلادك المُهيمن بداخلي، تابعت حديثي وأنا أتلو عليك صفاتك، وكانت من وحي حبي لطبعك ومعاملتك المنمقة بالحنين والإيثار، وفي لحظة حرجة لا تسع الاحتراق الذي يعتريني تحسستك نبضًا مسموعًا يخبرني بكل دهشة: كيف تعرفين كل هذا عني؟! هل التقينا في عالم آخر؟! هل تعانقت كلماتنا في نصوص الهيام واللوعة؟! مهلًا... مهلًا يا غريب! نعم التقينا لكن دون لقاء، التقينا في مكانٍ بلا حدود، تعانقنا بلا حدود، تبادلنا قُبلات النبوءة دون حدوثها، وكانت الثمرة أن جنيتك صدفةً وعشقًا وبعض الصداقة التي أكتفيها وأوزنها بكل مشاعر الكائنات الكائنة

و الغابرة، ثم العابرة إلى الصراط المستقيم، نعم التقينا فدعنا من حديث برجك الآن لأخبر عينك الشامخة حديث أرض العاشقين، وأصرح لبؤبؤ عينك الأسود سر تعلقي بك، وأستبيح اليوم محاولاتك المحفورة في خيالي، فأسترسل إلى عنقك سلامي وتحيتي وسلسبيل إلى دواخلك العامرة، فأُسقطك ببطءٍ على وسادة سحابة رمادية تُنادي عليك جهرًا وشوقًا، وتنهض عنك ماضيات خجلي وتأسرك بلا حواجز حتى تُسقيك رحيق روحي وأنت لا تزال تطلب وتطلب: ثم ماذا بعد؟!.

شوقــه

- اشتقتُ إليكَ في غيهب الليل وفسائل غرس الدُجى، بين أقراطي وأنت تَعَوّثْ فوضى وافتتان برنينها ، اشتقتُ إلى مجاهرتك ومحاورتك الدارجة بحكم الوله والنشوة، إلى الزوايا الشاسعة في الأزقة الضيقة، اشتقت وكل

جوانحي تندهك وتدنو إلى حافة سقوطك دون ميل أو تترن.

اشتقتك وقد تخالط ايماني بهباء الصمت فانبثَ في قيلولتي عناق ناقص، كترنيمٍ بلا خشوع، وكدعوةٍ حُجبت بسبعِ سماوات لأنها ظالمة لأشواقي اليتيمة.

أشتاقك غريبي وفي داخلي غُربة بمحيط كل أدمع العشق و أنين الحالمين في ليالي العيد المخصب انكسارًا وضراوة، وفي عيني سرابًا موشحًا بأحضانِ اللذة والتملق الذي يثير ويلاتي الخجولة، في تناسقٍ وأدب يُحاكي حِنكة شاعر جاهلي مخضرم، عَرِف سلافة الجاريات ثم ارتطم هدًى وتقوى حين التقى الله، فامتزجت أبياته رصانة وتهذيبًا، وبعض الاعوجاج الذي يزيد الطريق صعوبةً وإجحافًا لاسنًا بكل لكنات الوجود وصبغات اللغة؛ أشتاقك غريبي وإليك أكتب بكل المعاني والطلاسم والهمس المُقنع.

أنت لا تعلم كيف البعد يزيدني صبابة ويشجيني حيرة واندفاعًا نحو خارطتك الفارغة من كل المساحات إلا ظل نبضك الذي يخبرني أنك هنا معي، وطن وسلام لا أحمل قربه هم الإجابة عن سؤالك المعتاد: ثم ماذا بعد؟!.

تـمـنـي

حدث قبل قليل أنه حدثني عن شعوره بالانزعاج وبعض المزاج العَكِر، لا أدري هل نجحت في مواساته وحمل الثقل عنه؟ أم أنني ما زلت عالقة بين سؤالي وحيرتي: كيف لقلب مثله أن يحمل كل هذا الكم من الحب والعناء معًا؟! كيف له أن يضمني رغم وجوده على حافةٍ من هموم ودمع؟! كيف له أن يعطي ويعطي دون أن يطلب مني أو منا المزيد من الحب، نعم أنا أحبه بقدر لا يُقدر ولا يُقاس ولا يُحد، أحبه كمعجزةٍ تنتظرها نساء العالم أجمع، لكنني كنت صاحبة الحظ والنصيب، أنا مَنْ وَجدتْ المعجزة دانية هينة وعظيمة الأثر داخلي، ها هو الأن يودع شوقًا أو خوفًا يكنه لقلب يسكنه بالوفاء والطيبة، وهآنذا أودع عجز قلمي بكتابتي لانتظاره وانتظاري، وليتني أظفر ببعض الوقت معك على حانة رقصٍ على صفح النجوم، وأراسلك عبر نافذة من سحاب كثيف الأسرار، وألتقيك في أرض الأحلام تحمل عصاة واقعية تسحر الخيبات وتنير داخلي بك وبصدقك، ليتني أنتظرك وفي يدي كأس الحياة، كأس بنفحاتِ روحك وإرتشافك لقهوتك الصباحية، ليتني كحباتِ المطر، أتدحرجُ

على خديك بعد طيران المظلة وارتفاعها عمدًا في الفضاء، حتى يجن جنوننا ونرقص تحت ألحان السماء، ليتك الآن تعلم أنني أكره عجز البوح الرصين، كما أخاف الصراخ في عتمة الكلمات، أخاف تلك الكلمات التي تحول بيني وبين هداية عينك وتقوى دعواتك لي، أخاف كل الأشياء المجهولة وأشعر أنني حقًا أريد أن أحتمي بك وأتدثر بصدرك الوطن، وأقول بأعلى إرادة وعزم أنك لي، وأنا منك ولك، وسأقول أيضًا أن هناك مساحة في الكون خُلقت لأجلنا، هي فقط لنا نحن، أنت وأنا ولا ثالث سيشوه ثنائية روحنا العاشقة، لا أحد غيرنا سيشاركنا الألم والوجد، نحن فقط لبعضنا بعض وكل وأنا.

عودة

كنت كلما حاصرني شوقك حاولت التملق والاحتماء ببعض البوح، بحثُ لك بكل ما في سريرتي من حلم ودعاء، فحملتك في عين النشوة رغبة لا تنفذ ولا تُجهض، ستبقى في صفحة أيامي ذلك الغريب الغَرِير الذي لم تسقطه مكائد

العشيقات، وقد كنت لعشقي الروح والبداية، والمنتهى عند كل نهاية تطلب المجد يا فخر قلبي.

غدًا لن ننتظر عقارب الساعة ونزعجها بالمراقبة والتلصص، سندعها تمضي كبقية الأيام دون حصار وترقب، دون أن يبدو علينا القلق مما سنقوله بمناسبة يوم الغد، سنتصرف يا غريب على سجيتنا، تكتب لي وأكتبك، تمازحني بطرفةٍ لا تُضحك لكنني سأضحك حد البكاء فقط لأنني سأتخيل ملامح وجهك وأنت تحاول محاكاة المهرج لأجل ابتسامتي، سأضحك لأن العالم لا يعلم أنك معي ولي ولن يعلم، سأخبئ حكايتك بداخلي، وأحصن أفراحنا بالدعاء، وأكتم كل تفاصيلنا الصغيرة، وأجعلها منبعًا لكل أمل نحتاجه؛ نحن لسنا بحاجة لإعلان الحب وتصويره بمخيلة العالم الواسعة، نحن فقط نحتاج الحب، نحتاج أن نجد كفًا تمسح أدمعنا كلما تألمنا، نحتاج الحب فقط يا غريب وأنت تعلم أننا وجدناه عندما التقت أرواحنا في عوالمنا المختلفة، وجدناه عندما بدأت معاناتنا تتلاشى شيئا فشيئا، وجدتك عندما وهبتني سخاء نظراتك وعلمتني أن لا بأس في ضياعنا عندما نبحر في ملامحنا معًا، ولا حرج عندما تمسك بيدي ونتحدى كتمان الفؤاد المأجج، ولا عيب في

بوح الحلم الذي حلمته وأنا أفقد وأودع خوفي من وجودك داخلي إلى الأبد في المكان الذي هو لك، ولك أن تتخيل يا غريب كيف الغد معك؟ وكيف ستفرح معي ما دمت أنت نبض كتابتي وملهمي، ولكم أن تتخيلوا كيفما شئتم، ثم ماذا بعد؟! في حكايتنا.

القراءة معه

القراءة معه شيء مختلف، تجربة دسمة، ومن عجائب الصُدف أننا اخترنا نفس الكتاب، دون أن يُعلم أحدنا الأخر، ودون شك وريبة صدقت أننا التقينا، أهداني كتابًا عن الطفولة، فشكرته بامتنانِ عناقٍ نبع من فرحي؛ تشاركنا صفحات المقدمة الطويلة، بدأت قراءتي وصورته على شاشتي، ثم انصرف هو ليبحر في الكتاب المحظوظ قائلًا: قراءة موفقة عزيزتي؛ بينما أنا كنت أكتب له:

يا كل الأحبة والكلام

يا كل عالمي والزحام

يا نفس نفسي ونبضها

يا بعض بعضي والهيام

_قرأها ثم ابتسم وقال:

كم أنا محظوظ بكِ، حُبًا وشِعرا، وطنًا وكلمات.

إليك

هناك في أخر ناصية الحلم، جلس متكوعًا في منتهى الطمأنينة، ينظر إلى الفضاء ويده على ذقنه الجاذب، ينتظر نجمة ساحرة مختلفة يعشقها القمر، كم تمنى أن يكون في مكان ذلك القمر المحظوظ، كم تمنى أن يظفر بجرأةٍ أكبر

حتى يهندم كلماته ويصرح بعشقه، ربما وبخَّ نفسه ذات انهزام ونعتها بالجبن وقلة الحيلة، ربما سَهِرَ يتحدث مع بقية النجيمات، يعطي كل واحدةٍ دورًا لخدمة نجمته المميزة، كان هائمًا طليق الرغبة والسريرة، لا يشبه إلا حكايات جدي ومغامراته في زمنٍ لا يعترف بصدق الحب، هكذا كان يصور حالته بين مد وجذر، وبين عصفه وهدوئه يصطنع الصمود أمامي، كان يتلعثم كلما ناظرني، يتصبب شوقًا لمصافحتي، بينما أنا أتوارى عنوة عن نظرته، أمتنع عن السلام فأكتفى بإيماءةٍ شجاعة، تهدد كل بقاع دفاعه وتضعف خطط دفاعه، أنا هكذا خُلقتُ لتعذيبه وملاحقة خيالاته، أتذوق شهد حديثه بالخفاء هو لا يعلم من أنا، وأنا لا أعرفه فقط أدركت أنه كاسمي، وملامحه تشبه تجاعيدي الشابة، يعشق النبش وراء أسراري، وأنا ماهرة جدًا في تكتمي وغموضي، هكذا أحببنا بعضنا، وجدنا الأجوبة الشافية، فهل من سؤال أخر؟!.

عازف سيمفونية الخلود

ذلك المحظوظ يتناول فطاره الآن، ربما يفكر بي كلما مدَّ يده على الطبق، يبتسم كأنه شبه طعم الملح بطعم قُبلتنا الأولى، مالحة كما الحياة والطرقات؛ ذلك الغريب يتذكرني الآن، يذكر لقاء الصدفة والصورة، كلمات الإعجاب، بعثرات الحديث الأول التي جعلته كمَنْ سحرته الخمرة فذهبت بأسراره بين السماوات، احتلت غيوم الخير، صهرتها فأمطرت سوادًا على أرضٍ بُور، كان سكانها ينتظرون الأمل، فخابت عيون الرجاء، لم يتوقعوا أن كرم السماء سيهطل كلعنةٍ عليهم، هجرتهم الراحة فهاجروا كلهم إلى حيث العيش الرغد إلا رجلًا أشعثًا، كان يعزف المزمارَ بشجنٍ بليغٍ، يجلس تحت ظل شجرة عتيقة يابسة منذ سنوات، صامدة رغم الخراب والتصحر حولها، تبدو غامضة ولا أحد يعرف سرها سوى عازف المزمار، الذي كلما عزف حزنه اهتزت في غرابة مخيفة، لكنها مبهجة بالنسبة للغريب

الذي يحتضن ظلها، كأنها لبت نداءات رغباته المكبوتة برقصة، كأنها استجابت لسحر مزماره الكئيب فأنشدت معه أعجوبة البوح والوجود، ذلك الوجود الذي يعادل تساؤل الخلود والمُلك، إلى أين تؤول أوهامنا؟ وإلى أي زمان تنتمي أرواحنا؟ كيف وُجد الهواء داخل رئاتنا؟ كيف وُجدنا نحن على هذه الأرض؟ هكذا ترجم الرجل موسيقى المزمار، هكذا عكس ظلمة عقله، وهكذا نحن نهرب من الإجابة رغم عِلمنا بها؛ وفي يومٍ مليء بالغيوم في تلك الأرض المهجورة عاد أحد أصدقاء صديق الشجرة الميتة، ليتفقده ويقنعه بالذهاب معه إلى بر الحياة والهدوء، وجده كعادته يعزف في ثمالة وطرب، يهيم بأنفاسه إلى حد البلاهة، وقف الصديق بقربه لكنه لم يعره اهتمامًا أو بالأحرى كان لا يراه ولا يشعر بشيء، حتى رَبَتَّ على كتفه بغضب ففزع واقفًا متجهمًا، لم يرحب بصديقه بل وتضجر من قدومه قائلًا: عدتم لتزعجوني مجددًا! هل ستعودون جميعًا؟ هزَّ الصديق رأسه متحسرًا، مدَّ له مكتوبًا وغادره، كُتب على المكتوب: (حبيبتك التي تستلقي عند الشجرة لن تعود، ومزمارك الحزين لن يجعل روحها تنتفض وتلوذ إليك، حتى دموعك التي هدرتها والتي ستهدرها لن تحي الشجرة كما كانت من أعوام؛ صدق يا صديقي أن الموتى لا يعودون، لكننا نحيا

لنحياهم بكل تفاصيلهم داخلنا، وسنحيا لأجلهم، أعزف وأذرف دموعك لكن لا تنسى أن جميلتك تحت التراب تراك تبدو كعجوزٍ منهزم، حاربته الحياة فأعلن استسلامه دون أن يحاول الوقوف)؛ فرغ من القراءة، صرخ بقوة، لطم وجهه، ثم تناول كأسًا من الماء، تنفس طويًلا ثم قال:

آن الأوان لتمطر من جديد، وتنبت هذه الأرض، حان وقت الحياة ووقتي لأعزف سيمفونية الخلود التي ستعيد الحياة إلى شجرتي وأعود بها إلى عالمي الصاخب بالجنون والمغامرة، هكذا أنا كما كانت تراني حبيبتي.

هجرٌ وغموض

هجرٌ تكبدني بشدةٍ واخزة؛ أخذني من بؤرة التلاشي إلى فضاء العِناق، هجرك يا غريب يُشعل جليد الصبر الصامد، أتخيلك على ذراع قصيدتي الأولى، تقتطع صدر بيتٍ هزيلٍ، بين الثنايا والخلايا تزجني داخلك، بقوايَّ الخائرة وبكل رغباتي ما زلت أنشدك سجية للذكرى والتيه، يحيرني تعلقي بك، تفتنني المرايا كلما تزينت، وجهيَّ

الذي يشبهك، العلامة التي قُرب أنفك، عيناك، حاجبيك، أهدابك الظليلة، نظرتك الجامحة وأنا على ويلها أهتزُ كقطعةِ حريرٍ وسط تيارٍ عاصفٍ، أريدُ السكينة، أُريدك يا غريب أن تنتزع عني خوفي وهجرك، أريدك لوقتٍ بعيد لا ندركه بفوضى التوقع، وكما لا يمكننا رسم ما نتمناه على الورق الأسود الذي يملأ أرجاء الليل؛ اسمعني يا غريب بأذنٍ متمردة، رغم همسي وصمتي اسمعني، سأُشرق داخلك، عسجدية الحظ وزهرية الأمل، متواضعة حد الكبرياء، كبريائك يا غريب وأنت عند الضفة العليا تريدني أن أغدقك بوردي ومائي، كبريائك الذي سرقني بكاملِ حواسي، فأودعني وطنك الذي هجرته، الوطن الذي ينكر المواثيق لكنه قطعًا لن ينسى لحظة وداعك له.

إنها لعظمة يا غريب! أن تمتهن الهجر وعينك تتوسل شفاهي رحمةً ورجاء، تنأى عن منكراتِ الحياة، وتنتشيني عنوة من بين ألاف المغريات، أنا هنا أتطلع إلى هيكلك الدافئ، ألتهم خيال ذراعيك، أراقب سراب صورتك وأنت ترقص تحت شجرة تكرمت بأوراقها لأجلك، لأجل أن تنتهي الصلوات بك، وأحبسك عمرًا كاملًا في دعاء صغارنا الذين في رحم الغيب والغياب، أتعلم يا غريب؟ أتصبب حبرًا وأكتبك بلهفةٍ ولا أدري ما جدوى المسافات ونحن نلتقي رغم الهجرة والغموض، ثم ماذا بعد يا غريب؟! هل سنهزم أبجدية الاحتمالات ونهرب؟ نهرب إلينا دون عودة.

أعدك بي

عبقُ الأيام التي نعيشها، يسري في أعماقنا، يُرتبنا كما ولو أننا وُلدنا من جديد، اللقاءات الغائبة عن ذاكرة السعادة تذكرني بك، تلهمني العيش على شغفك، تُلون صحراء انتظاري بطيفك، يُعجبني السؤال عنك، أودُ لو حاصرتني زوايا رئتك، لتصطحبني إلى قفصك الصدري، تدسني بين ضلوعك الباردة، لأُنهي جدال الآهات بلثمةٍ طفيفة، لترشدني أشواقك إلى بئرك المجهول، أنا لا أجهل أن البحث عنك حياة، ما رأيك يا غريب؟ لنعود إلى يومنا الأول، تسألني من أين أتيت؟ واسألك: من أنت؟! وماذا تريد من عالمي التعيس؟ اسألك عن النبوءات الأولى، تحت شجرة ضخمة لا تُفارق مخيلتي منذ أن التقينا، توهبنا اليقين بالوجود، وُجدنا لنعشق هذا الكيان الكائن بأرواحنا الذي يدعى حبًا؛ أنا منك ومن عينيك، أُسطر طرقاتي المستحيلة، تُبعدنا الأقدار عن محيط التمني، وتقربنا الصُدف إلى أوطاننا المهجورة.

أتعلم يا غريب؟! قريتي التي شهدت ميلادي ابتلعتها الحروب، دُمر كل شيء بها، كل يوم تراودني الكوابيس ، تجثم على قلبي أفكار مُهلكة، أرغب بتذكر شكلي كيف كان؟ كيف كنت أحبو على الرمل الساخن؟ وكيف تعلمت

المشي على أرضٍ مليئة بالوحل؟! كيف فطمتني الحياة من أفراحها؟ أتذكرك بأرحام البيوت، مشاغبٌ بوجهٍ هزلي، تريدني أن أذهب معك إلى النخلة المسكونة، تخبرني أن تمرها لونه زهري وطعمة كالبندق، أصدقك وأهرب معك إلى حيث لا رجوع، نُعاند مصيرنا بشراسةٍ، أنت تعلم أن غرفتي السوداء تفتقدني، وأعلم أنك لا تقوى على نسيان مشاجراتك الليلية مع سقف غرفتك.

أحبك يا غريب ولننسى أننا غرباء، نحن معًا في أزقة الروح، نُريد البوح بأسرارنا التي شاخت، ونهوى المزاح على مزاجِ فنجانٍ مُرٍ، تستهوينا سذاجة الوقت، نهزمه كلما تمادى في تجاعيدنا، ننتصر نحن لحبنا، شبابنا باقٍ على نهجٍ طفولي، نلعب، نضحك، نرسم بالفحم على الجدران، نحن الأقوياء، نفوز برحلةِ الخلود، لنا كل الحق في عِناق الأماكن، بِعُهدتنا نزاهة القرار، قررنا البقاء معًا على حافة الخلاص، قررنا النهاية السعيدة التي لا مكان لها في سابق حيواتنا، لكنها باقية معنا مهما طال الصراع، ونحن معها يا غريب، نهايتنا التي لن تنتهي، ولن ترضخ لثوابت الطبيعة، طبيعتنا هي التي ستظفر بالألوان السحرية، والألحان الراسخة.

سنحيا يا غريبي بين أحضان الوعد، أعدك بي، بأنفاسي القادمة، أعدك بضعفي وقوتي أنني لك، معك، وبك سأنجو من شباك نفسي، ومن متاهاتِ الخيال؛ دعنا نلتقي الآن على أريكة وعدنا، وعندما يعاندك الليل بظلاله الغريبة، خذ نفسًا قصيرًا واغرق بحلمك الأبدي، ستجد العالم محطة طويلة بمساحةِ صدرٍ مُحب، ولثمة لحظية تلامسك بجنونٍ لتقول لك: أحبك.

إليك يا غريب؛ أحلام البارحة
والغد، هتاف الروح والجسد،
صمت الفراق والقُرب، إليك
شذى الذكرى والألوان،
المسافات الغائبة والحبلى
بالشوق، إليك حكايتك
وبعضي.
حكاية غريب _ نوادر إبراهيم عبدالله

سأظل أكتب إليك؛ أعصف
سكون العالم داخلي بالثرثرة
بك، أطوق عنق أحلامك
بوصالي، وألحق بخطى
الوقت المسرع، ألتقط أنفاسي
معك، وأغفو بين كفيّ
حكايتك.
حكاية غريب _ نوادر إبراهيم عبدالله

مطمئنةٌ بسلام أناملك؛ وأنت تقرأ هذه الحكاية، سعيدة بكل لحظة إلهام دفعتني إلى الشرفة، لأبحث عن طيفك، وأجدك في تدفق حبري، تهديني الطريق إلى الحياة، وتجعلني أعشق الكتابة عنك، بنفسٍ طويلٍ كله مغامرة وجنون.

حكاية غريب _ نوادر إبراهيم عبدالله

إلى عشاق أيلول والمطر،
إلى الحالمين بغيثِ النجاة،
إلى الذين يشبهون الحكاية
الأخيرة، هذه الحياة لكم،
وكل حكاياتها تشبهكم.
حكاية غريب _ نوادر إبراهيم عبدالله